بالمساومة، ما يحققه بالاتفاقات الصريحة والملتوية، وبالمقاومة المسلحة عبر الأنصار العرب. ومثلما برهن احتلال العقبة، على مقدرة الأنصار العرب في نظر الحلفاء، و«ضرورة تقويتهم ودفعهم نحو الشمال، ليعملوا أمام جيش فيصل، الذي أصبح يشكل الجناح الأيمن للجيش البريطاني، بقيادة الجنرال اللنبي»[٣٨]، برهنت استجابة الشيخ صالح العلي ومقدرته في تفجير الثورة، وقيادة عمليات ناجحة، على امكانية استخدام الثورة في الشمال، كورقة مساومة في وجه الانكليز والفرنسيين. ولكن الأسطول الفرنسي، كان أسرع من الحسين وابنه الأمير فيصل، فاحتل اللاذقية في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨، ووضع الثورة أمام الانكفاء وإلقاء السلاح، أو تجديد القتال على أسس جديدة. واختار صالح العلي، وقادة جبل صهيون، وقادة جبل الزاوية، مواصلة الثورة، فأعيد تفجيرها في منتصف كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨، وهذه المرة ضد القوات الفرنسية مباشرة.

صراع الأمراء وتحفة لورنس

بقدر ما راهن الحسين، ومن ثم ابنه الأمير فيصل، على جهود الأمير «محمد سعيد»* في التفاهم التركي ــ العربي، كخط احتياط، وكواجهة تختفي خلفها الجهود التحضيرية للثورة، فقد كان الطرفان يخشيان نفوذ الأمير سورياً، ويسعيان الى اقصائه. وما أربك خطط الطرفين، ان الأمير سعيد، استغل انهيار الجيشين التركيين السابع (بقيادة مصطفى كمال أتاتورك) والثامن، وسيطر على دمشق بواسطة الحرس الشعبي المغاربة (٧/١٠/١٩١٨). كان ذلك قبل وصول الأمير فيصل بثلاثة أيام، وقبل وصول لورنس والشريف ناصر بيوم واحد.

وطلب الأمير سعيد من صديقيه معروف الأرناؤوط وعثمان قاسم، احضار علم الحسين، الذي أحضره شقيقه عبد القادر من مكة. وعندما عادا به «خرج من السراي، واستلم العلم بيده، ورفعه على سراي الحكومة بين الهتافات»[٣٩]. وأصبح أول رئيس للحكومة العربية السورية.

وكان طبيعياً أن يفسر لورنس ما حدث، على أنه استفزاز ومؤامرة ضد الانكليز. ولكن الأمير سعيد، وهو يخلي كرسي الحكومة، قال للشريف ناصر، بحضور لورنس:

«انني أصادق على ما قاله أخي [يقصد الأمير عبد القادر] من تسليم هذا الكرسي اليك، لا خوفاً من تهديد لورنس، وانما من قبيل تأدية الأمانة الى أهلها»[٤٠].

وكان الأمير سعيد، قد نفذ خطوة أولى، اعتبرها الفرنسيون استفزازاً مباشراً لهم، عندما أبرق الى عمر الداعوق، طالباً منه اعلان انضمام بيروت للحكم العربي، واستقبال شكري باشا الأيوبي، كحاكم عسكري للمدينة. واحتجت فرنسا لدى بريطانيا، فأصدر الجنرال اللنبي، رئيس القيادة العليا، قراراً، قسم فيه البلاد السورية الى ثلاث مناطق، وأطلق عليها اسم «بلاد العدو المحتلة»:

(*) «محمد سعيد»، اسم مركب اعتمد شقه الثاني. وهو الأمير سعيد بن الأمير علي باشا بن عبد القادر الجزائري الحسني، الذي ينسب إلى فرع الحسن بن علي بن أبي طالب. وهو من مواليد دمشق سنة ١٨٨٢م، وكذلك أبوه الأمير علي، فيما ينسب فرع الهاشميين إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، فهم أبناء عمومة ويلقبون بالأشراف.